الرؤية والمنهج في المدرسة الأمريكية للأدب المقارن

ط.د/ بوترعة رشيدة

جامعة جيلالي اليابس– سيدي بلعباس

يرتبط مفهوم الأدب المقارن بالنقد الأدبي والتاريخ الأدبي لارتباطه بالوعي الكامل لمفهوم كل منهما، فالقارئ الجاد المتميز لا يقرأ من أجل التسلية و إضاعة الوقت إنما يقرأ قراءة متميزة ليكون فكرة عن النص المقروء، محاولا تقويم ما قرأ، سائلا نفسه أسئلة متعددة حول ما الفكرة التي يريد الكاتب إيصالها للقارئ؟ وما المدى الذي حققه هذا الإنتاج الأدبي؟ وعن الأثر الذي خلّفه في نفسية المتلقي؟ ليجد نفسه بعد ذلك في مرحلة الحكم عن العمل الذي بين يديه، وهذا الحكم الصادر عن النص الأدبي هو أول خطوة اعتمدتها المدرسة الأمريكية في دراسة الأدب المقارن.

مفهوم الأدب المقارن

يعرف M.F.Guyard الأدب المقارن بأنه « تاريخ العلاقات الأدبية الدولية، فالباحث المقارن يقف على الحدود اللغوية والوطنية ويراقب تبادل المواضيع والأفكار والكتب والمشاعر بين أدبين وأكثر»[1] فالباحث المقارن في نظر جويار عليه أن يتمكن من معرفة التاريخ الأدبي للأعمال الفنية التي قرأها في إطار عصرها الذي نشأت فيه، وأن يلتزم شروط المقارنة التي تخدم الفكر الأدبي، ويتحلى بالدقة في دراسة النصوص، والمعرفة الواسعة لدى الباحث المقارن.

لكن هذا التعريف لم يمنح المعنى الكامل للأدب المقارن، بل جعله يتخبط في دائرته ضيقة، إلى أن جاء كلود بيشوا وأندريه ميشيل وروسو وعملوا على إعادة ضبط نظامه وأوجدوا له تعريفا أوسع يبتعد كل البعد عن الحيز الجغرافي والزمان للأدب، ويركز على جمالية الوصف والذوق والفهم للنصوص الأدبية المتقاربة والمتشابه والمتأثرة بعضها ببعض، وعلى هذا نجدهم يقدمون تعريف للأدب المقارن على أنه فن منهجي ، يبحث عن روابط للتشابه
والقرابة والتأثير في تقريب الأدب المقارن من مجالات أخرى من التعبير أو المعرفة الأدبية[2].

هذا التعريف وسع من دائرة المقارنة بدعوته إلى الانفتاح نحو الأشكال المعرفية والتعبيرية الأخرى، كما أنه عرف الأدب المقارن على أنه فن والفن بطبيعته يحتوي على عناصر وقوانين جمالية تجعله ذا نسق خاص، وبهذا يصبح له ذوق خاص وتأثير خاص، ثم إن الجمال يصنع من الأدب أدبا خالدا ممتعا لكل القراء، وقد اشترط في المقارنة بين أدبين أو كتابين أو أديبين اختلاف اللغة والثقافة وإن كانت من تراث واحد بعيدة كانت في الزمن أو الفضاء.

أهمية الأدب المقارن:

لكل علم أهمية تميزه عن سائر العلوم، ولكل أدب ميزته الخاصة التي يمتاز بها عن بقية الآداب الأخرى، وهذا ما نلمسه بالنسبة للأدب المقارن الذي يمتاز بأهمية عظمى التي انبثقت بفضل الانفتاح والتطلع على إنتاج الأمم المغايرة و التفاعل والحوار مع ثقافتها، بعيدا عن التعصب والانغلاق على إنتاجها الخاص، فلا يمكن أن يشتد عود الإنتاج القومي إلا إذا احتك بعدد من العلوم الأخرى، حيث « لا يوجد شيء أكثر ابتكارا ولا أشد شخصية من أن يتغذى الإنسان من الآخرين، ولكن ينبغي هضم الغذاء، فالحق أن الأسد مكون من كباش مهضومة »[3] فبول فاليرى يرى بأن النص الواحد لابد أن يتكون من نصوص جمة، منظمة وفق

قوانين لغوية، وصور تجسد وتوضح فكرة معينة، فبهذا تنشأ حالة من التوازن والتكافؤ بين الآداب والثقافات المختلفة، فتظهر الآداب متساوية مع بعضها البعض، ولا نستطيع أن نميز أدب عن أدب آخر، ولا نلمس سيطرة ثقافة عن ثقافة.

وليس عدلا أن نخص أمة معينة بالذكاء وننعتها بالإبداع، فهذا الأخير ملك الإنسانية جمعاء، ومن البديهي أن يكون وليد الانفتاح على حضارات الغير، متوقفا على فهم الشعوب بعضها بعضا، فالأدب المقارن في نظر محمد غنيمي هلال « يرسم سير الآداب في علاقاتها بعضها ببعض، ويشرح خطة ذلك السير ويساعد على إذكاء الحيوية بين الآداب، ويهدي إلى تفاهم الشعوب وتقاربها في ثرائها الفكري – ثم هو بعد كل هذا – يساعد على خروج الآداب القومية من عزلتها، كي ينظر لها بوصفها أجزاء من بناء عام هو ذلك التراث الأدبي العالمي مجتمعا... بل هو – مع كل ذلك – عامل هام في دراسة المجتمعات وتفهمها ودفعها إلى التعاون....»[4] وتقوية روابط الاتصال العالمي، وتبيين خصائص القوة والضعف في لبنات المجتمعات الدولية.

يرتكز الأدب المقارن على الترجمة التي تساعد على فهم آداب الآخرين، وإخراج الأدب القومي من عزلته إلى العالمية فهي وسيلة ازدهار، كما أنها فرع من فروع هذا النوع الأدبي الذي بدوره يحاول « أن يشمل أكبر عدد ممكن من الوقائع المختلفة الأصل، حتى يزداد فهمه وتعليله لكل واحدة منها على حدة، فهو يوسع أسس المعرفة كما يجد أسباب أكبر عدد ممكن من الوقائع... وتقرير المشابهات والاختلافات بين كتابين أو مشهدين أو موضوعين أو صفحتين من لغتين أو أكثر إنما هو نقطة البدء الضرورية التي تتيح لنا اكتشاف تأثر أو اقتباس أو غير ذلك وتتيح لنا بالتالي أن نفسر أثرا بأثر تفسيرا جزئيا»[5] فالعمل الأدبي لا ينتقل من دائرته القومية إلى العالمية إلا بفضل هذا الوسيط (الترجمة)، ولكن من الأرجح ألا يعتمد الباحث المقارن على الترجمة فقط، وألا يعتبرها الوسيلة الأنجع، بل عليه أن يتقن اللغات الأجنبية، فإجادة اللغة من المتطلبات الأولى والأساسية التي تمكنه من تلقي العمل الأدبي المكتوب بلغته الأصلية، فاللغة الأم تحفظ للنص ذوقه ومزاياه وخصائصه الجمالية والفنية على عكس الترجمة.

المدرسة الأمريكية في الأدب المقارن.

نشأت المدرسة الأمريكية في القرن العشرين على يد René wellek وذاع صوتها في الجامعات من خلال محاضراته التي ألقاها بعنوان " أزمة الأدب المقارن"، في المؤتمر الدولي للرابطة الدولية للأدب المقارن عام 1958 [6]، وقد قامت هذه المدرسة على رؤية مغايرة للمنهج الفرنسي الذي قام على مجموعة من الأسس التي أدت إلى تهميش العديد من الآداب القومية المتشابهة وقد كانت رؤيتها شمولية حاولت من خلالها .

1- **إبراز الذات** : إن الهدف الحقيقي الذي جعل المدرسة الأمريكية تهتم بالأدب المقارن وتؤسس له، يكمن في تركيبة المجتمع الأمريكي المكون من عرقيات وقوميات متعددة، قد تربطها لغة واحدة وتفرقها العادات والثقافات المتنوعة، فكان أول مبدأ لهذه المدرسة أن تنفتح على العالم وتنظر إلى الثقافات نظرة احترام، ثم إعطاء كل ثقافة أجنبية ما تستحقه من عطف ديمقراطي في إطار انتماءاتها الغربية وخصوصيتها[7]، إضافة إلى حداثة تاريخها الذي يجعلها تحتل أهمية كبيرة واهتماما أكبر من الماضي التاريخي.

2- **نقد المنهج التاريخي**: وجهت هذه المدرسة سهام النقد ضد المنهج التاريخي _ الذي ساد القرن التاسع عشر_ ووضحت سلبياته ومحدوديته، وبينت عقم دراسة التأثير والتأثر التي اتبعها الرواد الفرنسيين القدامى، حيث أن ويلك Rene

wellek ينطلق من دراسة الصلات بين أدبين أو أكثر التي تجعل المتلقي ذا دراية بما يعرف بـ «التجارة الخارجية »، مؤكدًا بأن هذه الدراسة « قد فشلت في هذه المهمة الأساسية، وأثقلت الأدب المقارن بمنهجية عفا عليها الزمن، ووضعت عليه أحمال القرن التاسع عشر الميتة من ولع بالحقائق والعلوم والنسبية التاريخية»[8]، وهذا ما يؤكد أن المنهج التاريخي يفتقر إلى منهج يخدم العمل الإبداعي، ويضبط الدراسات المقارنة بالاتجاهات المعرفية الأخرى لتمسكها بأفكار قديمة بالية، تهتم كل الاهتمام بالسياقات الخارجية للنص الأدبي، بوصفه صياغة أدبية وثائقية لهذا فإن« محاولة حصر الأدب المقارن في دراسة التجارة الخارجية للأدب نوع من الجهد الضائع »[9] الذي لا يخدم الهدف الحقيقي للأدب المقارن، ولا يقدم نسقا واضحا يتم من خلاله التمييز بين مناهج الدراسات، كما يجعل المقارنة بين الآداب معزولة عن مجمل الآداب القومية، فتصبح الدراسات مقتصرة على تتبع الأسباب والنتائج التي تحقق الشهرة والنفوذ والسمعة، وتعمل على « تنمية مدخرات أمة الباحث عن طريق إثبات أكبر عدد ممكن من التأثيرات التي أثرتها أمة على الشعوب الأخرى أو عن طريق إثبات أن أمة الكاتب قد هضمت أعمال أحد العظماء الغرباء وفهمته أكثر من أي أمة أخرى »[10] وتفاديا لكل هذا عمل ويلك على إيجاد حل أنسب ورؤية صائبة تخرج الأدب المقارن من قوقعته الضيقة، فأسس طرحا جديدا يتماشى مع كل الدراسات الأدبية المقارنة.

3- **تأسيس منهج جديد:** بعد انتهاء ويلك Rene wellek من توضيح سلبيات المنهج الفرنسي الذي انحصر في دراسة الشؤون الخارجية للنص، قام معلنا أن هناك جانبا أوسع وأعظم يجب إضافته إلى هذا الجانب والاهتمام به يتمثل في الاعتناء بالشؤون الداخلية للنص الأدبي، وقد أقر بذلك قائلا أنه قد « آن للدراسة الأدبية أن تعود إلى الاعتراف بمملكة الفن، وأن تكف عن أن تعني كل شيء لكل الناس، وأن تعود لمهمتها القديمة التي قوامها فهم الأدب وتفسيره ونقله »[11] واستنباط جماليات التراكيب والدلالات والإيقاعات والمضامين، لأن النص الأدبي كل متكامل وكما له شؤون خارجية له شؤونه الداخلية .

شروط المدرسة الأمريكية وأبعادها.

لقد حاول ويلك توسيع دائرة الأدب المقارن محاولا الحديث عن الأدب بشكل عام دون أن يضع حدودا بين الأدب المقارن والأدب العام، فنظرته للبحث الأدبي تكمن في دراسة الأب دراسة جمالية نقدية يتم من خلالها استنباط الخصائص الفنية والقيم الجمالية للأدب، إذ لا يمكن تحليل العمل الفني أو وصفه وتقويمه دون اللجوء إلى الأسس النقدية، لذلك أشرك النقد في التاريخ الأدبي فهو يرى « أن المؤرخ الأدبي لا بد أن يكون ناقدا من أجل أن يكون مؤرخا »[12] لأن وظيفة النقد هي تأريخ الأدب، والناقد نفسه مؤرخ والعلاقة بين النقد الأدبي والتاريخ علاقة عضوية، فمؤرخ الأدب عليه أن يلم بتاريخ العلوم الفلسفية، والفنون، وتاريخ الحياة الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية ثم يضفي عليها طابعا نقديا.

ركزت المدرسة الأمريكية في دراستها على ثلاثة أبعاد هي "النقد، التاريخ، النظرية" لتتمكن من بلوغ الهدف الأسمى لوصف العمل الفني وتفسيره، « فالأعمال الأدبية معالم لا وثائق وهي في متناولنا الآن ويتحدانا لأن نفهمها فهما قد تسهم فيه معرفة الخلفية التاريخية والمكانية، ولكن إسهامها [يعني إسهام المعرفة التاريخية / الزمانية والمكانية] ليس هو كل ما يحتاج إليه. والفروع الرئيسية الثلاثة للدراسة الأدبية – وهي التاريخ والنظرية والنقد – يستدعي بعضها البعض، مثلما لا يمكن فصل دراسة الأدب

الوطني عن دراسة الأدب ككل، من حيث الفكرة على الأقل »[13] فالتداخل بين هذه الفروع الثلاثة تُمكن الأدب المقارن من دراسة الآداب المختلفة، وتحديد علاقاتها وفق رؤية مقارنة متميزة تهدف إلى تحقيق العمق والشمولية في رصد العلاقات الأدبية التي تتبادلها النصوص، وتؤكد فعالية ومصداقية الدليل الداخلي من خلال توظيفها الدليل الخارجي، فالأدب المقارن لا يستطيع أن ينفصل عن دراسة الأدب بل عليه أن يُكون معرفة شاملة بتاريخ أدبية ، وأن يكون المقارن ذا ثقافة ودراية عالية حتى يتمكن من دراسة الأدب .

اللغة :

إن شرط اختلاف اللغة الذي ربطته المدرسة الفرنسية بالقومية وجعلته شرطا أساسيا في الدراسات المقارنة، رفضته المدرسة الأمريكية وركزت على الجانب الذوقي وإبراز القيم الجمالية التي تربط النصوص ببعضها البعض، سواء مختلفة اللغة أو المتشابهة فـ« ليست هناك حقوق ملكية ولا مصالح معترف بها في البحث الأدبي، فلكل شخص الحق في دراسة أي مسألة يراها مناسبة حتى لو تعلقت بعمل مفرد في لغة واحدة »[14] حتى لا يتم تجاهل الكثير من الآداب القومية التي تكتب بنفس اللغة، فالعديد من الآداب تربطها لغة واحدة وتفرقها الثقافات والعرقيات والأماكن، فهذه « الآداب التي تكتب في لغة واحدة هي آداب قومية متميزة مثلما هو الحال على وجه اليقين في الأدب الأمريكي والأدب الايرلندي »[15] اللذان تجمعهما لغة واحدة وتفرقهما العادات والثقافات، وهذا ما ينطوي تحت ما تسميه المدرسة الأمريكية إنسانية الأدب المقارن، المبدأ الإنساني الذي وصل إليه ويلك بإلغاء الحدود اللغوية والإقليمية للآداب.

لذا فمن الواجب أن تكون هناك مقارنة بين آداب بلغة واحدة طالما أنها نتاج حضارات مختلفة.

مقارنة الأدب بالفنون

لم تكتفي المدرسة الأمريكية بدراسة البنى الداخلية للأدب ومقارنتها مع بعضها البعض، بل تعدت ذلك ووسعت مجال الأدب المقارن حيث امتد لجل الفنون، وانفتح ليشمل مقارنة الأدب بالمعارف الإنسانية المتعددة التي تقربنا من فهم الأعمال الأدبية، وتكشف عن جوهرها، فالأدب المقارن حلقة وصل بين الموضوعات والمجالات الخاصة بموضوع واحد لذا عرفه Henry H.Remak. بأنه ذلك « الفرع الذي يعنى بدراسة العلاقات بين الآداب من جانب وفروع المعرفة والمعتقدات كالفنون والفلسفة والتاريخ والعلوم الاجتماعية والعلوم الدينية من جانب آخر وهو مقارنة الأدب بمجالات أخرى من التعبير الإنساني»[16] والمزاوجة بينهما ، فكل المجالات المعرفية نابعة من نفس الإنسان وممتلئة بالمشاعر والأحاسيس والرؤى، التي تجسد عن طريق فن من الفنون سواء الأدب أو غيره.

وهذه الفنون لها صلة مع بعضها البعض وتفسر بعضها من عدة جوانب، وفي أغلب الأحيان تشرح الأعمال الفنية عمل أدبي معين والعكس صحيح.

اتسعت الرؤية الأمريكية لتربط بين المنهج التاريخي والمنهج النقدي، باعتبارهما عاملين ضروريين في دراسة أية ظاهرة أدبية من وجهة نظر العديد من الآداب المتصلة والغير متصلة بعلم واحد أو أكثر من علم . وقد عملت هذه الرؤية على تقريب الآداب بين

الشعوب المختلفة وأذكت حيوية الأدب في أحداث التقارب الفكري بين الثقافات.وبهذا يصبح للأدب المقارن مفهوما صائبا، إذا تعدى المقارن دراسة العلاقات التاريخية والشؤون الخارجية للنص، واهتم بالفن على أنه تجربة إنسانية بوابتها الأدب مركزا على الشؤون الداخلية لهذا العمل معتمدا على أساسين اثنين النقد الأدبي والتاريخ الأدبي ليخضع هذا العمل بعد ذلك لعملية التذوق واستنباط جماليات التراكيب والدلالات والإيقاعات التي تَميزت بها النصوص المكتوبة بلغة واحدة أو بلغات مختلفة ، والمقارنة هنا لا يمكن حصرها في العمل الأدبي المكتوب فقط بل تتعدى ذلك لتشمل جل المجالات المعرفية كالرسم والنحت والموسيقى وغيرها من الإبداعات والفنون المختلفة.

الهوامش:

1- ماريوس فرانسوا غويار ، الأدب المقارن ، تر: هنري زغيب ، منشورات عويدات ، بيروت ، باريس ،ط2، 1988، ص 15.

2- « La littérature comparée est l'art méthodique, par la recherche de liens d'analogie, de parenté et d'influence, de rapprocher la littérature des autres domaines de l'expression ou de la connaissance, ou bien las faits et les textes littéraires entre eux distants ou non dan le temps ou dans l'espace pourvu qu'ils appartiennent à plusieurs langues ou plusieurs cultures, fissent-elles partie d'une même tradition, afin de mieux les décrire, les comprendre et les goûter.

- Voir. P-Brunel. CL-Pichois, A-M-Rousseau, Qu'est-ce que la Littérature comparée? Armand Colin. Paris, 1983 ,P 150.

3- ماريوس فرانسوا جويار : الأدب المقارن، المرجع السابق، ص15.

4- ينظر، محمد غنيمي هلال: الأدب المقارن ، نهضة مصر، ط9 ، أكتوبر 2008، ص 21.

5- عدنان محمد وزان: مطالعات في الأدب المقارن ، الدار السعودية ، جدة ، د.ط ،1983 ،ص18.

6- رينيه ويلك ، مفاهيم نقدية ، تر: محمد عصفور . تر: محمد عصفور عالم المعرفة.المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت عدد110. يناير1978. ص362.

7- سعيد علوش ، مدارس الأدب المقارن دراسة منهجية ، المركز الثقافي العربي، ط1، 1987، ص93.

8- رونيه ويلك ، مفاهيم نقدية ، تر محمد عصفور، ص 362.

9- المرجع نفسه، ص 363.

10- المرجع نفسه، ص368.

11- رنيه ويلك : مفاهيم نقدية ص355.

12- المرجع نفسه ص373.

13- عصام بهي، طلائع المقارنة في الأدب العربي الحديث ، دار النشر للتوزيع ،القاهرة ط1 ، 1996م ، ص16-17

14- رنيه ويلك، مفاهيم نقدية ، ص370.

15- رنيه ويلك ،آوستن أوآرن ، نظرية الأدب ، تع : عادل سلامة ، دار المريخ ، الرياض ، د.ط ، 1992، ص74.

16- صابر عبد الدايم : الأدب المقارن بين التراث والمعاصرة، دار الكتاب الحديث، القاهرة، ط1، 2010، ص14.